ISLAMIC SCIENCES JOURNAL (2021) Vol (12) Issue (3) section (2) : 43-65
https://doi.org/10.25130/jis.21.12.3.2.3

IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية

ISSN:2073-1159 *(Print)* *E-ISSN*: 2663-8800 *(Online)*
ISLAMIC SCIENCES JOURNAL
Journal Homepage: http://jis.tu.edu.iq

ISJ

Manifestations of Nostalgia in the Poetry of Nizar Al-Nadawi - a Study in the Office of Stolen Kingdoms -

Dr. Muhammad Hassan Abbas *

General Directorate of Education in Wasit Governorate, Ministry of Education - Iraq .

KEY WORDS:

Nostalgia, poetry, Nizar Al-Nadawi, kingdoms, stolen .

ARTICLE HISTORY:
Received: 3/ 2 /2021
Accepted: 14/ 2 / 2021
Available online: 25/ 4 /2021

ABSTRACT

This research examines the manifestations of nostalgia in the product of the expatriate Iraqi poet Nizar Al-Nadawi in its various manifestations, according to the mechanisms of the descriptive and analytical method, describing nostalgia as a phenomenon that has received the attention of Iraqi writers. The research studies some of the poetic texts selected in the Diwan of Stolen Kingdoms, to clarify the manifestations of nostalgia in selected titles such as, nostalgia and spatial estrangement, nostalgia and spiritual estrangement, the estranged poet's nostalgia for the beloved and the cities in which he lived, and other different phenomena of nostalgia from a critical point of view, as well as shedding light on an important aspect of the poet's biography and approaching his creative spaces.

ISLAMIC SCIENCES JOURNAL (ISJ ISLAMIC SCIENCES JOURNAL (ISJ)

* *Corresponding author: E-mail*: **zaidiiraq1973@gmail.com**

ISLAMIC SCIENCES JOURNAL (2021) Vol (12) Issue (3) section (2) : 43-65
https://doi.org/10.25130/jis.21.12.3.2.3

مظاهر الحنين في شعر نزار النداوي – دراسة في ديوان ممالك مسروقة–

م. د. محمد حسن عباس
المديرية العامة لتربية محافظة واسط , وزارة التربية – العراق.

الخلاصة:

يدرس هذا البحث مظاهر الحنين في نتاج الشاعر العراقي المغترب نزار النداوي باختلاف مظاهرها، ووفق آليات المنهج الوصفي التحليلي، بوصف الحنين ظاهرة حظيت باهتمام الأدباء العراقيين، ويستقيم البحث عبر دراسة بعض النصوص الشعرية المختارة في ديوان ممالك مسروقة، لاستجلاء مظاهر الحنين في عناوين مختارة، كتلازمية الحنين والغربة المكانية، والحنين والغربة الروحية، وحنين الشاعر المغترب إلى الحبيبة والمدن التي عاش فيها، وغير ذلك من ظواهر الحنين المختلفة من وجهة نظر نقدية، فضلاً عن أنّه يسلط الضوء على جانب مهمة من سيرة الشاعر الذاتية والتقرب من فضاءاته الإبداعية .

الكلمات الدالة: الحنين, الشعر, نزار النداوي, ممالك, مسروقة.

المقدمة

ظاهرة الحنين بمختلف صورها تعدُّ من بين الظواهر الفنية التي حظيت باهتمام الشعراء والنقاد في آن واحد ، فقد وجد أثرها في الأدب العربي يوم كان الشاعر يعاني بسبب ابتعاده عن وطنه ومفارقته له أقسى أنواع المكابدة وصور المعاناة، وقد بدت هذه الظاهرة جلية في نتاجات الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي وحتى يومنا هذا، يوم كان الشاعر يتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن مظاهر الحياة وهروباً من منغصاتها، فكان حنينه إلى الديار والأهل والربع والحبيبة يزداد ويطغي على موضوعات نتاجه الإبداعي، وذلك أمر طبيعي فالشاعر مجبول على المكان الذي ولد فيه وترعرع ، وإن ابتعد عنه فإنه يتوق إلى العودة إليه في كل وقت ؛ لأنه يمثل حياته، وتجربة عمره الفاني.

وقد حظيت هذه الظاهرة بدراسات عدة منها على سبيل المثال: دراسة "الحنين والغربة في الشعر الأندلسي" للباحث مها روحي إبراهيم وهي رسالة ماجستير صادرة عن جامعة النجاح في فلسطين ، ودراسة "نوازع الشوق والحنين لدى شعراء المهجر– إيليا أبو ماضي أنموذجاً" وهي لمجموعة من الباحثين العرب، وكتاب "الحنين والغربة في الشعر العربي" لمؤلفه يحيى وهيب الجبوري والصادر عن دار نشر مجدلاوي في الأردن في العام ٢٠٠٧.

وقد اخترنا لهذا البحث شاعر من شعراء العراق الذين سطعت ظاهرة الحنين جلية في نتاجه الشعري، واستطاع أن يصوِّر حنينه وعاطفته إلى وطنه بأبهى صورة وأبلغ كلام ، محاولين قراءة نصوصه الشعرية قراءة وصفية تحليلية ، باحثين عن مظاهر الحنين فيها، وما رافق تجربته الشعرية التي عاشها في مدن الغربة، وما ارتبط بها من المشاعر والأحاسيس والكيفية التي صوَّرها فيها.

سيجيب هذا البحث عن تساؤلات عديدة تتمحور حول ماهية الحنين ومظاهره ومسبباته في نتاج الشاعر، وطبيعة الظروف التي قادته إلى ذلك، منطلقين من حقيقة مفادها أن الحنين إلى الديار والأهل والأحبة كان ولايزال محركاً للمشاعر الإنسانية ومترجماً لما يجول في قلوب المفارقين لأوطانهم .

حياة الشاعر ونشأته :

في حي الأعظمية أحد أحياء بغداد الراقية ولد الشاعر نزار النداوي في العام ١٩٦٢، وفي مدارسه أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ، ووسط أزقة الحي الجميل عاش الشاعر أيام صباه وشبابه الذي بدأه مؤمناً بأفكار الحركة الإسلامية التي بدأت بوادرها تلوح بالأفق آنذاك ثم منتمياً لها، لتطاله حملات الاعتقال التي استهدفت الشباب المنتمي لتلك الحركات، ويبدو أن

الاعتقال المبكِّر الذي طاله كان سبباً دفعه إلى ترك البلاد متوجهاً إلى الأردن، ومن هناك إلى سوريا، ليستقر بي الحال في لبنان منتصف شهر آذار ١٩٨١.

وفي لبنان الزاخر بالأحداث السياسية، عمل النداوي كاتباً في عدد من الصحف المحلية حتى صار شاهداً على الكثير من الأحداث التي مرت على ذلك البلد، فمن حربه الأهلية التي اندلعت عام ١٩٧٥، إلى مقتل السادات في مصر، وصولاً إلى الاجتياح الإسرائيلي صيف عام ١٩٨٢، وحركات المقاومة في فلسطين ولبنان، كان لا بد للشاعر العراقي المشبع بالأفكار الثورية من المشاركة في صنع الحدث، ودعم المقاومة بالقصائد الثورية ، لتكون البداية عبر أناشيد ملهمة تُلحَّن وتُسجَّل وتُوزَّع عبر التسجيلات، يومها كان عمره لم يتجاوز الواحد والعشرين عاماً.

وفي العام ١٩٨٧ غادر الشاعر مع عائلته أرز لبنان متوجهاً إلى الدنمارك، وهناك شعَرَ بالحرية والاستقرار النفسي وتوفرت له أسباب العيش الرغيد ، لكنه مع كل ما أُتيح له من مغريات العيش لم يستطع التأقلم مع المجتمع الأوربي لاعتبارات اجتماعية وعقدية ، فبدا عليه الشعور بالغربة والعزلة معاً ، وكان لتلك الأجواء أثر في استثارة مشاعر الحنين إلى الوطن، والمدن العربية التي علقت في مخيلته .

ظلَّ الشاعر مقيماً في الدنمارك حتى ربيع العام ٢٠٠٣، ليعود إلى بلده الأم، لكنه مع كل ما يحمل من مشاعر الشوق والحنين إلى بلده الذي طالته آلة حرب المحتلين لم يبق طويلاً ، وسرعان ما غادره عائداً إلى لبنان مرة أخرى، بعد أن بدا له حجم الخراب البشع الذي أصاب بلاد الرافدين.

أصدر النداوي مجموعتين شعريتين، إحداهما: "**من أين لنارك هذا الثلج**" صدرت طبعتها الأولى عن دار الهادي في العام ٢٠٠٢ ، وعن دار الرافدين في بيروت في العام ٢٠١٨ صدرت طبعتها الثانية، فيما صدرت مجموعته الأخرى التي عنونها " **ممالك مسروقة الوقت**" عن دار الرافدين في العام ٢٠١٨ ، وله مجموعة ثالثة تحت اسم "**تقاسيم على المشتهى من لغة الخضر**" لم تبصر النور حتى الآن.

أولاً: تلازمية الحنين والغربة المكانية

كثير ما يتلازم الحنين إلى الوطن مع الغربة المكانية التي عانى منها الشعراء على مَدار التَّاريخ لأسباب مختلفة ، فكلَّما ارتحل شاعر عن أرضه ووطنه، كلما شعر بحنين طاغ إليهما، وقد يجد نفسه –لا شعورياً– وهو يصوّر حاله وحال غربته وحنينه في هذا الموقف أو ذاك، وذلك أمر طبيعي عند سائر الناس والشعراء على وجه التحديد ، فالغربة والحنين إلى المكان، عاشا مع الإنسان منذ أن بدأ يضرب في الأرض ، ويحمل بين جوانحه "ضروباً من الإحساس بالغربة حتّى تلوّن أدبه بذلك الإحساس واصطبغ بتلك المشاعر" (١).

ولا تنحصر التلازمية بين الغربة والشعور بالحنين إلى الوطن في مرحلة زمنيّة معيّنة دون سواها ؛ بل هي تشبه إلى حدٍّ بعيد موج البحر المتصارع الذي لا يعرف الاستقرار" فكلّما قست على الشاعر حالة من حالات الخيبة وضياع الأمل، والانتظار القاسي والحيلولة دون تحقيق المبتغى، فُرض عليه صراع نفسي لا ينفك إلا وقد أُنهِكه بوحًا" (٢).

ولأن الغربة تمثل عند الإنسان والشاعر على وجه التحديد " معنى اجتماعي خالص" (٣)، فقد حرص فيما يبدو من نتاجه الشعري ، على رسم صورة الحنين والشوق العارم المفعم بالمشاعر الحزينة والجياشة، التي فرضتها عليه الغربة المكانية التي عاناها، ليمنح تلك المشاعر إيقاعاً ودلالة ولغة خاصة معبرة عما كان يشعر به تجاه تلك الأحوال، جامعاً بين خيال خصب وحقيقة محسوسة ، فلا عجب أن يرسم الشاعر صورة الحنين وهو يقف في محطة المسافرين بلا عودة، ليودع أحبة له.

وإذ يجري الشاعر حواراً ذاتياً حول المنافي وانعكاساتها النفسية والاجتماعية، يشحن النص الشعري ببعد نفسي ودلالة ذات مغزى ، وينجح في توظيفه لخدمة ما يود الافصاح عنه، فإحساس الشاعر بالغربة والحنين إلى وطنه وعجزه عن نيل ما يريد، حوَّل ذكريات بلاده الأم إلى جرح نازف كلما مرت في مخيلته محطات المسافرين بلا عودة، وبريد المنافي.

---

(١) ماهر حسين: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، مصر، ١٩٧٠، ص٥.

(٢) ماهر حسين: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، مرجع سابق، ص ١٧.

(٣) ينظر: ندوة حول مشكلة الاغتراب، فتح الله خليف، ص ١١٤، بحث، مجلة عالم الفكر، مج١٠ ، ١٩٧٩، وينظر – أيضاً– الغربة والاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، محمد راضي جعفر، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٩٥، ص ٥٦.

ووسط ما يشعر به النداوي من عجز الذات عن تحقيق ما تصبو إليه ، وفقدانه ، يظل مفهوم الاغتراب مرتبط بعجز الإنسان "عن التوفيق بين طبيعته الإنسانية الخاصة وما يريد تحقيقه لكنه غير قادر عليه ، فيشعر لذلك بانفصال بين ذاته الداخلية والهدف الذي يريد تحقيقه "[١]

ومن المسلَّم به أنَّ الإنسان لا يقوى على الانفصال عن مجتمعه وذويه ؛ كونه اجتماعياً بطبعه، فهو يؤثر ويتأثر ، لكنه بلا شك قد يقع في أنياب أخرى لم يكن يحسب لها حساباً ، تبدأ من لقمة العيش، والتكتلات الايديولوجية والثقافية، ولا تنتهي بالحنين إلى الديار والإحساس بفقدها، وحينها تصبح ديار الغربة القسرية من أكثر الأقدار مدعاةً للكآبة ، ووقتها يصبح التفكير بتلك الظروف والأحوال هو المسيطر على قوى الشاعر وهواجسه ، ويضفي على نصه الشعري صوراً مليئة بالحركة والانفعال الداخلي ، وليس أدل على قولنا صورة الشاعر التي تتجلَّى فيها دلائل الحنين إلى الوطن واضحة، ومعاني الغربة عميقة، حيث محطات المسافرين بلا عودة، وبريد المنافي الذي يواري ويكذب، فيقول [٢] .

تعلمُ لن يرجعوا .... كنت تعلمُ أنّ القطارَ الذي ركبوا
لا يعودُ بركّابه مِنْ جديدٍ... وتعلمُ أن المحطاتِ ألغتْ تذاكرَ عودتِها
وبريدَ المنافي يماري ويكذبُ ... تعلمُ أن بريد المنافي يكذّبُ
تأتي، وتسألُ نفسك .. يا أنت .. ذا فرحٌ يتراقصُ بين يديك
فمن أين باغته الحزنُ سهواً؟

ولم يقف وجود المدن الجميلة والمناظر الخلابة ومظاهر العيش الرغيد في أوربا حائلاً دون تفاقم حنين الشعراء الممزوج بالغربة إلى ديارهم، فصيروه غرضاً شعرياً يلقي بأثره البالغ عليهم، فليس جديداً أن يفكر الشاعر وهو من أشد الناس تأثراً بواقعه ، بالتخلص من الواقع الذي فرض عليه وانفعالاته وتوتراته النفسية وصراعاته الداخلية ، وتداعيات القلق والكبت النفسي اللذين يعانيهما فقداً للأحبة والديار. والشاعر إذ يمارس نقده للذات في بعض نصوصه الشعري؛ إنَّما يثور على حياة كاملة لم يستطع الانسجام معها ومع طريقها، رغم أنه ابن لها [٣].

وفي صور شعرية تراوحت بين المادية والمعنوية ، يثري الشاعر نصه بالدلالات النفسية التي عاناها واكتنفها جراء فقد الأحبة ، منطلقاً من واقع مؤلم خبره الشاعر جيداً، فهو يعكس عجزه

---

(١) جانيت ديلون ، شكسبير والإنسان المتوحد، ، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، دار المأمون للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٨٦، ص ٩٨.

(٢) الديوان، ص ٢٧.

(٣) ينظر: نسرين محمود الشرادقة ، الاغتراب في شعر أمجد ناصر، عالم الكتب الحديثة ، أربد ، الأردن، ٢٠١٣، ط١، ص ٢٣.

واستسلامه عن مفارقة من يحب في أفق شعري يتنقل فيه من المحسوس إلى المجرد، ومن المجرد إلى المحسوس، ومن ذلك قوله [١].

أقدر أنّك زاولتَ حزنكَ ... من دون قصدٍ

وعاندتَ وجهك ... من دون قصدٍ

ومن دون قصدٍ ... سئمتَ انتظارَك أن يرجعَ الراحلون بعيداً

تقرّرُ ترحلُ ... لكن، إلى أين؟

وتعبِّر الاسقاطات النفسية في النص الشعري– غالباً– عن التجربة الذاتية للشاعر وما يرافقها من دلالات نفسية متغيرة تلقي بأثرها البالغ عليه، فيحرص على تصوير ما يعانيه نفسياً لإبراز تجربته الشعرية، ويمكن ملاحظة هذا التصوير في نصوص النداوي، الذي وظَّف حالتي الضياع والتشرد اللذين يعانيهما وهو في ديار الغربة، مستخدماً جملة من الألفاظ والتراكيب التي تؤدي الغرض المطلوب دونما تأويل آخر، في مؤشر على قدرة فائقة في عملية الخلق الشعري المتميز، وذخير لغوي ثر، وتجسيد لصور شعرية قادرة على شحن السياقات بدفقات شعورية تعبر عن الحالة التي تعتريه جراء ضياع الوطن والأحبة في آن واحد.

وفي استعارة بلاغية لافتة يتفاخر الشاعر بشجاعته في مواجهة النفي والإبعاد اللذين نضجا وصارا جزءاً من يومياته كما ينضج الثمر، لتترافق الصورة الشعرية والشعور الداخلي في جو تصويري ما كان له أن يكون ؛ لولا الإسقاطات التي خضع له وكانت سبيلاً إلى إبداعه، وبذلك فهو يشخّص المشهد المعاش بشكل دقيق ، ويضفي عليه مضموناً إنسانياً، فكلِّ شيء عند النداوي ما خلا الوطن وما يضم وهم، وليس حقيقة، فيقول[٢] .

ألا أيُّها الوهمُ ... بي رغبةٌ لاختزالٍ أخيرِ

وبوحٍ أخيرٍ ... فإنّي تصبّرتُ نضجاً على النّفيِ

ما بينَ صفّينِ ...هذا يشاءُ، وذا لا أشاءْ

وخمسٌ وعشرونَ مرّتْ ...ونحن نعيشُ فُرادى

وحينَ رقَصنا ...انسكاباً لترنيمةِ الموتِ

ثمّ هَزَجْنا فُرادى

ومن الملاحظ أنَّ تجربة الشاعر لم يكن فيها ما يخدش صدقيتها، إذ لم يلاحظ له تكلفاً في حشد رموزه وصوره ومعانيه وثقافته الصوفية التي مال إليها وهو في بلاد الغرب وقراءته الواسعة في

---

(١) الديوان، ص ١٣

(٢) عبد الرحمن عرفان، الشعر الحديث في اليمن– ظواهره الفنية وخصائصه المعنوية، ، جامعة بغداد ١٩٩٦، ص ١٢٠.

إنجاح ذلك، وعبر هذه التقنيات وغيرها نجح الشاعر في بثِّ سيلٍ من حزنه وحنينه لموطنه وما حوا، وتلك صفة قد تلازم جميع الغرباء عن أوطانهم، فالإنسان المغترب يعاني "من عدم القدرة على الانسجام مع المجتمعات الأخرى، ويحس بالضياع والظلم وفقدان الحرية والتحدي في مواجهة التحدي وعدم الانسجام النفسي مع الذات"[١]، فغربة الشاعر وحنينه إلى طفولته وصباه وذكرياته المبتلة بالشوق والحنين واسترجاع تفاصيلها، جميعها توظّف لحشد المشهد بأكبر قدر ممكن من الشاعرية، وتشبث بذكريات الأمس وقصص الرفاق.

ثانياً: الحنين والغربة الروحية

استدعاء الشاعر للمحطات الموحشة في أي مكان كان يأتي في سياق المشاركة الوجدانية، ليعبر من خلالها عن مشاعر الفقد والحنين اللذين عاناهما، وقد يكون التوظيف القرآني" **ولا عاصمَ اليومَ إلّا النّوايا** " دالاً على مشاعر الفقد هذه ؛ فالشاعر حينما يستحضر قصة طوفان نوح، ربّما يعتقد أنَّ هجر الأوطان ومفارقتها صار أمراً لا مفرَّ منه ؛ وهو لا يقلُّ أسىً ولوعة عن طوفان النبي نوح (ع) ، وما آلت إليه أحوال أهل بيته ، ففي تناص بلاغي يستعيد الشاعر قصة النبي التي ذكرها الكتاب المجيد: ﴿ طسم يسٓ الصَّافَّاتِ صٓ الزُّمَر غَافِر فُصِّلَتْ الشُّورَى الزُّخْرُف الدُّخَان الجَاثِيَة الأَحْقَاف مُحَمَّد الفَتْح الحُجُرَات قٓ الذَّارِيَات الطُّور النَّجْم القَمَر الرَّحْمَن الوَاقِعَة الحَدِيد المُجَادِلَة الحَشْر ﴾[٢] وهو ما يتشابه والموقفَ الذي يعيشه، أو الحالة التي يعبر عنها، فيقول[٣]:

تلطّفْ، لأنّ المحطاتِ غرثَى ... وما برحتْ تقتفي أثَرَ الغرباءِ بوحشتِها
فَهْيَ تَرْفدُ أرضَ المنافي ... لدى كلّ صبحٍ عديداً جديداً
ولا عاصمَ اليومَ إلّا النّوايا

ومن القراءة النقدية المتفحّصة لنصوص الشاعر النداوي يتّضح أنّه كان واحداً من المؤمنين بتخلص الشعر الحديث من الصياغات المصطنعة ، وزخرف القول، والنبرات الإنشائية، ومن أجل تحقيق هذه الغاية ينجح في اللجوء في مرات متعددة إلى تقنيات مختلفة، كالمعادل الموضوعي/ الآخر، ليسقط عليها عواطفه ، وهي رغبة ومقدرة فنيّة في تصوير نفسه بصورة هذا الآخر؛ فها هو يشير إلى حقيقة غياب كل الذين دخلوا إلى المنافي وديار الغربة استخفاءً ، ليبقى وحده نجماً لامعاً بين من يراه مَن العامة والخاصة ، لكن بلا مدار يدير فيه، فالمسالك

(١) حسام التميمي، تجربة الاغتراب عند فدوى طوقان، بحث، مجلة جامعة بيت لحم، العدد ١٨، ١٩٩٩، ص ٤٧.
(٢) سورة هود، ٤٣
(٣) الديوان، ص ٩٤

وعرة، والسبيل إلى تحقيق الغايات دونه الخطوب، ليضعنا الشاعر أمام نص شعري فيه من التجويد الفنّي والتطريب الإيقاعي، والتنويع الدلالي ما يهز الوجدان والضمير.

وحتى يظهر دواعي حزنه ومبلغ معاناته الروحية، يعكس النداوي مدى ما يعانيه وحيداً ومحاولته انتظاره الخلاص من واقعه المليء بالأكاذيب ، فهو يقضي وقته متقلباً بين الساعات التي تشعره بثقل الزمن ومعاناته، لتبدو نصوصه الشعرية تحفة فنية رسمت بعناية اللغة وجمال التصوير ومداد الخيال الخصب، وإن كانت موسَّمة بطابع حزين، يتلاءم وتجربته الشعرية، لتكون تلك القدرة كالغيث الرمزي الذي ينهمر على مروج نصوصه الشعرية التي تعكس حالة من القلق والاضطراب المسيطران اللذان يثيران الحنين وغربته الروحية، ومن ذلك قوله : [١].

إلى أين تمضي ... وكلّ الأماكنِ موغلةٌ بانتظارٍ؟

إلى أين؟ كلّ الذين تسوَّرتَ غابوا

وها أنت وحدَك ... نجمٌ، ولاتَ مدار

إلى أين بالزمنِ المتبقي من العمرِ؟ إنّ المسالكَ وعرى

ونحن نعيشُ على وقعِ اكذوبةٍ ...سمِّها ما تشاءُ

ولا تنحصر مقاصد الشاعر ومراميه في موضوعات معينة، ولا تتمحور في اهتماماته الفردية والحياتية فحسب، بل تمتد وتتسع لتشكل مختلف نواحي الحياة ، وتعبر – في الوقت عينه– عن عاطفة الجماعة في معظم جوانبها، ففي ثنايا نصوصه الشعرية تظهر قوته وتمسكه بالحياة رغم تعقيداتها متدفقة إلى حدٍّ كبير، ليشعر الناس على اختلاف مشاربهم بأنه صامد، يمكن أن يكسر، ويعكس همومهم تجاه آمالهم ونوازعهم وقضاياهم المصيرية، ليغدو النداوي واحداً من الشعراء الذين طوعوا الشعر للأغراض الإنسانية، لاسيَّما ما يتعلق بحب الوطن.

فللوطن عند الشاعر مكانة لا يمكن أن توصف ، كيف لا؛ وهو يمثل مكان لحظة الولادة الأولى ولحظة الممات، وما بين الميلاد والممات تكون تجربة الحياة التي لا يمكن أن يُنسى معها الوطن الجامع للَّحظتين المتناقضتَين، بكل ما يَحمل تناقضُهما من دلالات" [٢].

وانطلاقاً من هذا الشعور الذاتي الذي يدرك قيمته جيداً ، يحرص النداوي على رسم صورة شعرية بتشبيه بلاغي تام ، قيمته تقوية وتوضيح ما يريد التعبير عنه وتجسيده في صورة ملموسة ، فهو كمَن يتدلّى في وحدته وبعده عن الوطن، كالثياب القديمة حينما تعرض في سوق البيع ، ليعود وهو يسحب بتعب بالغ سنين منفاه كجيش هارب منكسر يجر الهزيمة والخذلان .

---

(١) الديوان ، ص ٢٥.

(٢) ياسر عبد الحسيب رضوان، عناصر الحنين إلى الوطن، دراسة مقارنة بين شوقي والمعري، ٢٠٠٦، مكتبة الألوكة الالكترونية، ص ٢٦.

ولم يقف الشاعر عند هذه الصورة التي يُظهر فيها ضعفاً وانكساراً نفسيَّين تجاه الوطن الذي فارقه مكرهاً، بل يحرص على نثر ما تبقى من جسده البالي في شارع المتنبي وسط بغداد ، حيث الثقافة والأدب ، في صورة استعارية فيها من مواطن الجمال والتخيل البلاغي ما يلبي رغبة الدارسين .

ويعكس حرص الشاعر في إجراء مقارنة بين مكان الغربة والمكان الأم، حالة القلق والاضطراب النفسيين المسيطران عليه، خصوصاً بعد ما اكتشف أن كل ما عدى العراق هو خيال وليس حقيقة ، ليعلن في نهاية المطاف عن تخليه وتنازله عن كلِّ ما يمنعه من العودة إلى وطنه الذي يشعر تجاهه بالغربة والحنان المفرطين، وما بين الواقع والحلم ومالهما من ترجيحٍ عند الشاعر ، تجيء المفارقة بين المكانين– أوربا والعراق– مستدعيةً البعد المكاني من ناحية، والاستقرار النفسي الماثل في اشتمال المكان الحاضر على كل ما تحتاجه نفس الشاعر من ناحية أخرى، ليعكس النص الشعري حرقة قلبه ولوعته، فيقول: [١].

أنا المُتدلّيْ على وِحْدتي كالثّيابِ القديمةْ عدتّ أسحبُ خمساً وعشرينَ واهمةً مِنْ سنينيَ خلفي
كجيشٍ يجرّ الهزيمةْ ... لدى شارعِ المتنبّي نثرتُ هشيمي
وناديتُ مَنْ يشتري كتبَ الوهمِ منّي؟

ولأن الشاعر لم يعرف الاستقرار في وطن السراب والتلاشي صار الرحيل وترك الديار عليه لازماً ، وهناك صوَّر في أحدى قصائده لحظة ضعفه وحاجته للآخر، فاستعار مذاق الهيل وطيب عطره في استدعاء حبيبته ، ليعكس إلى جانب لوعته وشوقه وهيامه لها ، قدرة وبراعة في توظيف الأساليب البلاغية في عملية الخلق الشعري، فهو يطلب من حبيبته ذات الريح الطيبة سكب ولو جزء يسير من رائحتها في قهوته في استعارة بلاغية جميلة وبذلك يشكل عنده فعلا تطهيريا يمارسه ليتخلص من ذكرياته المريرة وحاجته التي بلده انهكته.

وقد عانى هناك اغتراباً صاحبه شعور بالعزلة والانطواء ، لذلك لا يتردّد بالاستعانة على من يقويه على مواجهة العيش في العوالم التي أجبر على العيش فيها ، وليس أفضل من يقوم بذلك غير الحبيبة التي يتمنى حضورها كي تنسيه همومه وأحزانه وحنينه ، وذلك أمر طبيعي فالحنين إلى الأوطان "عاطفة إنسانية أصيلة في النفس البشرية، وليس من الممكن قصرُها على إنسانٍ دون غيره، بل كل مَن عانى الابتعاد عن الأهل والوطن شعَر بالحنين والشوق إليهما ليعكس الشاعر ثورة نفسية عارمة تتأجج بداخلة ويبرز صورة أُخرى تعبر عن انفعالاته النفسية تجاه الوطن[٢] ، والشعراء هم أكثر الناس عرضة للصدمات وفراراً من عوالم الواقع إلى عوالم الحب

(١) الديوان، ص ١٠٧.

(٢) ياسر عبد الحسيب رضوان، عناصر الحنين إلى الوطن، ص ٣١

والاستنجاد بالحبيب، وهي التي استدعت أن يعلن النداوي حاجته لحضور الحبيبة لتشعره بالاطمئنان والاستقرار مثل صوت فيروز عند الصباح في تشبيه بلاغي جميل، وبذلك تبلغ ثورة الاشتياق عند النداوي على الحبيب الغائب حدّاً كبيراً ، فيقول: (١)

ويا أنتِ ... يا أهرقَ الهيلُ في حِجْرها روحَه

لو سمحتِ ... أُسْكُبِي قطرةً منكِ في قهوتي

ثمّ مرّي على وَحْشَتي ... مثلما صوتُ فيروزَ عندَ الصّباحِ

ثالثاً: حنين الشاعر إلى الوطن والمدن التي عاش فيها

سطَّر المشتغلون في حقل الأدب في العراق كماً كبيرا من الأدب بمختلف صنوفه وأشكاله التي نفثوا فيها عن حنينهم وآلامهم الطاغية تجاه الوطن وهم يعيشون بعيداً عن ربوعه ، ومنذ الأدب الجاهلي وحنين الشعراء إلى أوطانهم من الموضوعات التي استأثرت باهتمام المتلقين والشعراء أنفسهم والنقاد على حدٍّ سواء، ففيها وقفوا على العاطفة الصادقة، وأحوال التجربة الذاتية وانعكاساتها الاجتماعية والعاطفية التي يكون فيها الشاعر في أغلب أحيانها هو الذات والموضوع ، ولأن الشاعر نزار النداوي لم يجد ما يسرُّه ويقرُّ عينه في بلاد الغربة، شعر بنوع من الندم على مفارقة من يحب تلك وحنين إلى وطنه ومجتمعه ، وصار يرعى النجوم وحيداً حزينا، بعدما تفرق عنه الصحب والأحباب متطلعاً ليوم يُلم فيه الشمل ويكون اللقاء، ليبرز عنصر القلق واحد نتيجة لعدم اطمئنان الذات إلى ما يحيط بها مادياً ومعنوياً، وهو ما يدفعها إلى التعبير عن القلق بصور وأشكال مختلفة تختلف باختلاف الموقف (٢)، فيقول (٣).

لمْ تكنْ تُصْغي ... ولوْ أنّك أصغيتَ إلى رغبتكَ الطّفلةِ شيئاً

وتنكّبتَ عنِ الدّربِ إلى البصرةِ شيئاً... وتهدّلتَ على عُمركَ حبلاً للفراغِ

ما ترامتْكَ بلادٌ لمْ تجدْ فيها جليساً ... ما عدا طاولةَ المقهى

وإبريقاً من الشاي العراقيّ نديماً ... تتهاداكَ المَنَافي

والمَنَافي عاهرٌ ... تقتاتُ مِنْ أوجاعِنَا المُرّةِ

حتّى إنْ ذَبُلْنا ... جعلتْ منّا انزياحاً للمَعَاني

في الدّلالاتِ المُضّافةْ

ونلحظ أن الشاعر في العديد من نصوصه يعبر عن قلق وجودي ضارب في أعماقه تجاه دورة الحياة والموت، أو الحضور والغياب التي تطحن الناس برحاها ، وفي هذا المضمار الروحي

---

(١) الديوان، ص ١٠٠.

(٢) ينظر: نسرين محمود الشرادقة ، الاغتراب في شعر أمجد ناصر، مرجع سابق، ص ٧٧.

(٣) الديوان، ص ١٢٢.

يسطر أروع نفثات الحنين والشكوى من الواقع المأزوم، ليختزل كل ما يتطلع إليه شاكيا عذابات الغربة ومزاجها وتقلباتها وحنينه إلى وطنه الذي أبعد عنه مكرهاً ، عاكساً ما يعانيه من الآم اللوعة وفراق الأحبة ، فالعيش في ديار الغربة وإن أضحى جميلاً وحلماً لبعضهم، فهو وهم وليس حقيقة، خصوصا لأولئك الذين يقضون الليل باكين متفكرين لا يستقر لهم مضطجع، وهو بذلك يبرز عناصر الحنين التي تؤثر بالسامعين، في معاناة روحية ممزوجة بقدرة هائلة في صياغة التجربة الشعرية التي تغدو خلّاقة ومؤثرة وحزينة، ظاهرها وباطنها متأججٌ ومشتعلٌ بالحنين حدَّ الجنون، فيقول (١).

وماذا سوى أن أريدَكِ للتّيهِ ... والوطنِ المشتهى

مارَسَتْهُ الرّياحُ... فَنحنُ على ضفَّتيهِ عرايا

وماذا سوى وطنٍ .. لم تذُقْ من يديْهِ القرى

غيرَ صيْفَيْنِ جوعًا .. نصيحُ بهِ، أنْ تلطَّفْ بصبْرِكَ شيئًا

فحولَكَ كلُّ البلادِ بغايا

ثم يعاود المكان الحضور في قصائد الشاعر ملتفتا إلى سياق الشكوى من حصار الوحدة والقلق والانعزال والموت الذي يخشى مداهمته وهو في بلاد الغربة لينفتح المشهد الشعري على استجابته لمؤثرات تسهم في رفد النسيج النصي بقيم جمالية ومعنوية وتلعب دوراً في تحدي بوصلة ما يود قوله .

ولأنَّ للحنين – بمختلف أنواعه– صلة مستمدة من فقد الأشياء التي يحبها الآخر، فقد يكشف عن عاطفة إنسانية صادقة، تسهم في خلق النص الشعري وقوانينه

ولعمري فأن تلك العاطفة تكون أشد قسوة وأكثر تأثيراً إذا كانت قسرية وخارجة عن إرادة الإنسان ، من هنا يمكن القول: إن مثل هذه الظروف ربما هي التي أجبرت النداوي على الحنين الدائم والشوق العارم لبلده ، فحتى في وجوده مع مَن يحب تخيلاً فإنّ نفسه لا تنفكُّ عن الانفعال العاصف لتنبذ كل أوجاعها ، القلق والخيبة والأزمات والسفر إلى اللامكان ، وهي ذات ما يعاني المبعدون عن أوطانهم.

وإلى جانب هذا كله، فقد يكشف النص الشعري حرص الشاعر في الكشف الدائم عن أحاسيسه الجياشة إزاء الوطن والحنين إلى الأرض التي أجبر على مفارقتها ، أرض لا تفارق العيش في مخيلته في كل الأوقات والأزمان، ولعل هذه الملازمة وما استدعَته من الحنين إلى الوطن عند فراقه وما رآه من ويلات وانعكاسات الغربة والترحال، هو ما جعله لا يقوى على الصمت أمام مظاهر الحنين التي تستعر بداخله ؛ فهو كما قال الجاحظ كـ" الغرس الذي زايل أرضه وفقد

(١) الديوان ، ص ١٠٦.

شربه، فهو ذاو لا يثمر وذابل لا ينضر" [١] ولذلك استدعى كل الأحوال الدالة على الفزع والاضطراب، والقلق والخيبة والأزمات والسفر إلى اللامكان ، ولذلك قال: [٢]

ينضر .... هنا احتفل العمرُ بالزّمن الضّائعِ القسمات

وما بين قوسين ... كان الخيالُ انفعالاتِ نفْسٍ

وقد نبذت كلّ أوجاعِها . القلقُ , الخيبةُ , الأزماتُ , الأزقةُ, والسّفرُ اللّامكان

وبعد مقاربة النماذج الشعرية التي تضمها ديوان" ممالك مسروقة" نجد أن كثيراً منها يدور في فلك التعبير عن ذاتٍ أتعبها الشعور بالضيق والانغلاق والاحتباس الدائم، ما يعني أنها تعيش زمنا مغلقا لا يسمح لها بالانعتاق وممارسة الفعل الخارج فارتدت إلى ممارسة ذلك الفعل على فضاء الصفحة الشعرية [٣]

وكغيره من الشعراء العراقيين المغرمين بالمدن التي احتضنتهم، ينفتح الشاعر على العلاقة بين المدن والشعر، إذ أن شعر المدن والتغني بها وبمفارقتها هو شعر حداثوي بامتياز وربّما حصل ذلك لتأثر الشعراء العرب بأقرانهم من الغرب، فمن قصيدة الخراب لأليوت التي مارست إغواءها الخاص، استلهم الكثير من شعراء ما وراء البحار شهوة الكتابة عن المدن وتتبعوا انعكاسات مفارقتها، فمن لوركا إلى بودلير، ومن أبو لنير إلى جاك روبو، تحولت مدينة باريس وأخواتها إلى أشبه بالمعبودة الملهمة للشعراء [٤]، مع أن من الباحثين من يرجع ظهور شعر المدن مع سقوط الأندلس، حين انتشر رثاء المماليك والمدن، كإشبيلية، وغرناطة، وقرطبة، كما ظهر مجدداً عند سقوط المدن العربية فيما سمي تاريخيا بـــ" الحروب الصليبية" [٥].

ويتَّضح أن الخطاب الشعري للمدن التي عاش فيها الشاعر يعتبر واحداً من أهم الدوال المؤسسة لذلك الخطاب، وذلك واضح من احتكار تلك المدن لحقيقتها واستيعاب انفعالية النص الشعري وحساسية الشاعر، فها هي خيوط الذكريات المبعثرة التي تعبر عن حنين طاغ وانعدام في الاستقرار النفسي للشاعر في بلاد الغربة، حيث الشعور بالاختناق، والغربة، تجتمع كلها في مخيلة الشاعر التي يستحضرها بشكل لا إرادي ، لتذكر النداوي الذي يصف نفسه بالمتجول فِي

---

(١) الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ط١، ص٤٧.

(٢) الديوان، ص ١٤.

(٣) حسن غانم الجنابي، سيمياء المكان في شعر محمود درويش ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ٢٠١٦، ص ١٢٧.

(٤) ينظر: عبدالله مهتدي، شعرية المكان في ديوان" حين استدرجتني المدن" للشاعر محمد منير، مقالة ، صحيفة الحوار المتمدن، رقم العدد ٥١٥٨، ٢٠١٦.

(٥) المرجع نفسه .

الأَزِقَّةِ دُونَ هَدَف وَلاَ هدى بكل شيء جميل لايزال عصيٌّ على النسيان ، ليتضح في النهاية أن تلك المدن وكأنها هي من تسكن الشاعر آلما ووحشة وفراقاً مر، وليس العكس، فيكتنز النَّصُّ الشعري بعناصَر بلاغيَّة مكَثفة مُتَعَدِّدة، تتشابُكِ مع بعضها عضوياً ، لتجتزئ من دينامية تفاعل النص، فاعلية بلاغيَة، تَتَخطَّى الاستيعابَ التَّقليديَّ العربِيَّ للبلاغةِ القائمة على مجرد التَّشبيه أو الكناية أو الحذف أو ما شاكل ذلك، فيقول: (١).

خيوطٌ من الذّكريات المبعثرةِ ..اجتمعتْ
لوَّحتْ لي ... أنا المتسكّع في اللازمان
وكانت دمشقُ ... على عهديَ المستديمِ بها
ليلُها ... دفءُ حاراتِها
بعضيَ المتناثرُ فوق أزقّتها... والعيونُ التي قتلَتْنا
ونادى بي الموسلينُ

والمعجم اللغوي في شعر النداوي من أبرز ما يميز تجربته ويمدُّها بالتفرد والخصوصية من بين تجارب كثير من الشعراء في العراق عامة، على الرغم من أن هذه التجربة تشهد انفجاراً لغوياً وظلت محافظة على اعتدالها البلاغي وفصاحتها في الوقت نفسه، فللغة دور يتمثل في استحضار الحقائق لإثارة عواطف المتلقي وتوجيه المعنى وفقاً لكيفية القائل ، وعندئذ تحقق اللغة أعلى درجات التواصل بين المرسل والمرسل إليه، وكذا كان النداوي الذي رأى من واجبه العمل على تطوير أسلوب التعبير وفق رؤيا جديدة ويبدو أنه نجح في ذلك، فها هو يجسد في سبيل ما قلناه جميل المعاني والعبارات ودقة التصوير والمؤثرات، فالشاعر وأن غيبته قسراً مدن أوربا وارفة الجمال؛ إلا أنه ظل يعيش حنين السنين الخوالي والأيام السالفة لدمشق، تلك المدينة الضاربة في أعماق التاريخ، وحضارتها العريقة ، مضاعفاً الأثر النفسي للغة المستخدمة ، مع بلوغ الألفاظ دقة ووضوحاً عاليين، لكن دونما تأثير على جمالية الأسلوب وقصدية المعنى .

فهو يعرف مضارب أهله بجميع حواسه لا بالعين فقط، ويتطلع للتسامر بين بيادرها وارتشاف قهوتها العربية ، لكن أنى ذلك وقد حالت بينه وبين دمشق جدران الغربة القاتلة، وحتى أسئلته التي يطرحها في بلاد الغرباء فهي دائماً بلا جواب، ليعكس عبر نصوصه الشعرية آهات الآنين ولهيب الشوق والحنين، مشكلاً في سبيل ذلك مشهدا دراماتيكياً حزيناً يُشعر السامع بلوعة الفراق، وأثر الغربة، يقول : (٢).

(١) الديوان، ص ١١.

(٢) الديوان، ص ١٢

وأشم مضاربَ قومي ... وتلك البيادرُ كم راكضتني سنابلُها

فالسلامُ على أسمرِ القمح ..قلتُ :سلاماً

وأرشفُ قهوتَك العربيةَ ...أسئلةً لم تُجبْ حين سائلتُها

وفي مشهد شعري ممزوج برمزية عالية وطيف خيال خصب تجاه دمشق التاريخ والحضارة، تتراكم في ذهن الشاعر صور الحنين والشوق العارم لتلك المدينة الجميلة الغارقة في الأمنيات لتسهم في حشد المشهد الشعري شوقاً للبلد الذي يحب (سورية)، ذلك المكان الذي ما يزال في ذاكرة الشاعر متشبثة بذكريات أزقتها ، فهو يستعرض سيلاً من الشكوى والحنين العارم لتلك البقاع وهو يستذكر خيباته متنقلاً من بلد إلى آخر، باحثاً في وجوه الغرباء عن دفء الحنان ومشاعر النقاء فلا يجد لذلك سبيلاً، لتغدو نصوصه الشعرية نشيد من الشكوى والمرارة وتتضح فيها غربة المكان ممزوجة بألم الفراق.

وتمثل تلك النصوص من شعر الحنين " نوعاً من الفرار من الواقع الأليم"[١]، فالمكان الذي يريده الإنسان هو الحيز الذي يحتوي الذاكرة والذات والأحلام، ويؤسس لرؤيا تنفد إلى اللاوعي الجماعي المغيب في ذواتنا واحلامنا"[٢] لذا فأن ترك مثل هذه الأماكن قسراً إلى مكان جديد في بلاد المهجر، يولد لدى الشاعر غربة وحنين تتجلى في شعره ولغته، يقول: [٣]

قبلَ أن أستحمَ بِليلِ دمشقَ ... يعانُدني عقربُ الوقتِ مستعجلاً

والمؤذنُ نادى الصلاةَ ... تصفحتُ ذنبيَ

قال المقامَ حِجازٌ ... تذكرتُ كم من هنا مرَّ عمريَ رحالةً

والمدائنُ لم تتسعْ لظلاليَ ساحاتُها ... وشوارعُها سألت :من يكون؟

أنا يا شوارعُ مستطرقٌ لا يكلفُ أرجوحةَ العيد

إن التداخل المنطقي بين اللغة والشعر في نصوص الشعراء يمكّننا من تبني الرأي القائل إن "الشعر فن لغوي مهمته ارسال رسائل خاصة تتأثر بالمظهرين الجمالي والدلالي، إذ يعتبر الاهتمام بهذين المظهرين ودراستهما وتحديد خصائصهما من أسس الإعلام للتلقي الجمالي" [٤].

---

(١) ماهر حسين فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، (د. ط)،١٩٧٠، ص١١٨.

(٢) مشري بن خليفة، النقد المعاصر والقصيدة الحديثة ، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٣، ص ١٥٢.

(٣) الديوان، ص ١٥.

(٤) د. صلاح فضل ، النظرية البنائية في النقد الأدبي ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧ ، ص٣٩٣.

ولعل استدعاء الشاعر لمدينة دمشق فيه ما يشير إلى مكانتها من نفسه؛ مكانة التمحت ليتخذها الشاعر معادلاً موضوعياً، يُسقط عن طريقة عاطفة الشوق والحنين إلى موطنه الأم، موظّفاً في سبيل ذلك نسقاً لغوياً ثرّاً يبرز فيه الشوق والحنين واضحين للمتلقي ، حنين زاده تمسكاً والتصاقاً ببلده ، ويكشف عن صعوبة بالغة في التكيُّف مع الحياة في ديار الغربة، وعجزاً عن العيش فيها.

ولأن النداوي ينتمي لكل شيء في وطنه ، وفي إطار تعبيره عن حنينه لبلده ورغبته العارمة في العودة إليه، يرسل الشاعر المغترب سلامه وتحاياه لبلاد الرافدين التي تنزف على الدوام، لكنها في ذات الوقت عصية على السقوط وتأبى التنازل عن كبرياءها وتترفع عن الانقياد، فالشاعر لا يرضى إلا أن يكون منتميا إليه، ليعكس حالة الشجن التي تؤطّر مفهوم نصوصه ومعانيها وقدرته الفائقة في تصوير الأشياء بلغة خيالية وموسيقية رائعة ، ومن ذلك قوله: (١)

أزجي السّلام إلى العراق ... محمَّلاً ما أودعت من سرّها فيه السّماءْ

ويُزُفّ للقدر المدوَّر مرتين ... ومرّتان نزيفُه والكبرياءْ

يا سيداً شفّرتُه بالانتماءِ ... فما انتمى إلا لوجه الجُرح

نزّ لدى المقاصلِ ما تشاءْ

واستدعت الظروف والأحوال العصيبة التي عاشها العراقيون إبان ثمانينيات القرن الماضي والحروب العبثية التي خاضها النظام آنذاك وراح ضحيتها خيرة شباب العراق، أن يجد بعض من أبناء البلد العيش خارج حدود وطنهم هرباً من الموت الذي طاردهم في كل مكان، ومن بينهم الشاعر الذي عانى صراعاً بين الظروف التي عاشها داخل بلده ، وبين غربة الأرض والوطن والواقع المرير من جهة أخرى.

ويبرز حجم التمزق الداخلي المؤلم الذي عاناه الشاعر عندما يعيّره الشتات بسحنته السوداء وانتمائه العرقيّ ويعاني من انعكاسات غربتين هما : غربة الذات وغربة المكان، لكن مع كل تلك الظروف العصيبة يبقى الشاعر مفتخراً بأصوله وعرقه العربي وتاريخ امته الموغل في القدم، ولعلّ معاناة النداوي من الغربتين كان لهما الدور الكبير في أن تولد نصوصه الشعرية ناطقة باسم الجمع الأكبر، والهم الجمعي، وصادحة بشكوى القلوب الممزقة، تحت مذابح الهجرة وسكاكين المنافي التي عاشها، وهي تجربة حقيقية بكل تفاصيلها الدقيقة، فهو ينظم من رحم المأساة ومن أرض الأزمة ومن قاع الألم ومكابدات الغربة، وآلم الحنين ودفق الشكوى " محققاً

(١) الديوان، ص ٢١

بذلك ما يقوله الفلاسفة من أن "أقدر الناس تعبيراً عن الشقاء، من كان في الشقاء نفسه" [١]، وفي قصيدة "انكسار المسافة" ما يعكس شكواه في بلدان المنفى وحنينه الدائم للعراق، مستعيناً بقصة إليهود ودرع داود، فيقول: [٢].

وطني تركتُ التِّيْه خلفي ... يضحكون من انعتاقي نجمةً خجلى

وعيرني الشتاتُ بسَحنتي السمراءِ ... قلت لهم شهادةَ مُوغلٍ في الضّاد

ما في الضّاد ثَمّة ما يُريبْ؟

رابعاً: الحنين إلى الأهل والاصدقاء والأقرباء

وإذا كانت الظروف السياسية الصعبة تفرض على الأديب في منطقتنا العربية اللجوء إلى نوع من الرمز في كتاباته، ومع أن الحالة السياسية في العراق لم تكن بأفضل مما كانت عليه في باقي دول المنطقة، إلا أن الشاعر النداوي أبى إلا أن يكون جريئاً في طرحه، غير متردد عن نقد الأنظمة السياسية وإن زاد جبروتها، موظفاً أسلوبي الشعر الحر وقصيدة النثر، ومعتمداً في الوقت ذاته على تقنيات السرد والقص الحكائي، وفي إطار استدعاء الشاعر لذكريات الأهل والرفاق في سياق المشاركة الوجدانية، يحاول على جعل تلك الذكريات معادلاً موضوعياً يعبر من خلاله عن مشاعر الفقد التي سيطرت على رفاق الأمس، وربما كانت قبضة الكف من الريح المشار إليها في النص دالاً على مشاعر الفقد هذه؛ في نصوص شعرية تأسر القلوب وتجذب الأسماع، وتطرح أحزان النفس الإنسانية المفارقة .

فليس مفاجئاً أنّ يكتب الشاعر نزار النداوي نصوصاً شعرية يستذكر في بنائها ومعانيها رفاق الأمس الذين قضوا بحروب عبثية كان للعراق حصة كبيرة منها، فهو ما أنفك ينحت نصوصه على مهل محاولاً تحطيم البناءات القديمة وتأثيث النص بما تشتهي سفن المتلقي ، وربّما هذا ما يميز شعره الطاغي بالارتباط بالتراب بالوطن وأبنائه مهما ابتعد زمكانيا ، فقد حرص الشاعر على إبراز عظم الفاجعة المؤلمة التي حلت بالوطن، بأسلوب أكثر وقعا على نفسية المتلقي

فحينما تكون الحروب عبثية والموت مجاني يكون ذلك معنى من أبرز معاني الفقد ، هما وحدهما – فيما يبدو– من حوّلا أصدقاء الشاعر على الرغم من كثرتهم إلى قبضة كف على الريح، يوم اتصف الإبداع بانتكاسات متتالية في حرية التعبير الفكري والثقافي، مع انهيار

(١) فن الشعر. أرسطو، ترجمة وشرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٧٣، ٤٨.

(٢) الديوان، ص ٢٢.

الانفتاح الذي شهدته الحياة السياسية والفكرية في العراق اثناء السبعينيات" [١]، وبهذا الصدد يقول الشاعر: [٢]

هارباً من ثنائيةِ الموتِ والعبثيةِ ... ودّعت آخرَ مَنْ يتذكرُني
في زقاق المحلّة مِنْ أصدقائي ... الذين على رغم كثرتهم
لمْ أجدْ غيرَ قبضةِ كفٍ على الريحِ منهم ... كتبتُ على صفحةِ العدمية
أسماءَ مَنْ ماتَ منهم ... ضحايا ثلاثِ حروبٍ
وأكتبُ أسماءَ مَنْ مات باسم القضايا الكبيرةِ منهم ... على ظهرِ دبّابةِ الاحتلال

ولا ينقل الحنين عند الشاعر" عاطفة وحسب، وإنّما ينقل غابة متشابكة الغصون من العواطف والمشاعر"[٣]، فحنينا لمن نحب ألم متواصل وذوبان في أشجان وأحزان تعصرها ذاتية المشاعر، وعلاقتها بمجمل الحياة وعلائقها الاجتماعية.

ولأنّ الحنين إلى الوطن هو واقع نفسي دعته ضرورة ذاتية ، فمن الطبيعي أن يقترن بالإطار الزمني، وفيه يشعر بالخواء النفسي والعاطفي، ولكون ناصية الإبداع هي" فعل النشاط الإنساني الذي يهدم الراهن المعروف ويولد الجديد غير المعروف" [٤] لذلك فقد سجلت الذاكرة الشعرية في المهجر كثيراً من المواقف ولحظات القسوة والألم ممّا يعجز عن تصويره كثير من الوسائل التقنية والابتكارات الحديثة السمعية والتصويرية، فحملت تلك الذاكرة الكثير من الآهات والغصات والعبرات التي أطلقتها حناجر المغتربين والمهاجرين والمهجرين، يقول [٥].

هذا وما زالتْ على الأبوابِ عيني ... تشتكي صمتَ الشبابيك المدلّهةِ
التي قصّت جدائِلَها وألقتْها بديوان المهَلهَل ... قيلَ لم تبقَ البسوسُ
على رجالٍ لا تغافلُ ثأرَها ... هذا زمانٌ مارَسَتْ فيه الخناجرُ
عادةً سريةً أخرى

خامساً: الحنين إلى الحبيبة

أدَّت المرأة (الحبيبة) دوراً كبيراً وفاعلاً في حياة الرجل والشاعر بشكل خاص، فمثلت نصفه الثاني الذي لا يمكنه التنازل عنه لأي سبب كان، فكان لحضورها في حياته أثر في تفعيل الإبداع الشعري، كما الحرمان منها يعدُّ سبباً في التراجع الإبداعي .

---

(١) علي عبد الأمير، الشعر العراقي في المنفى ووعي المنفي – جيل الثمانينات أنموذجا، الموقع الرسمي للشاعر،٢٠٠٩.

(٢) الديوان، ص ٥٢.

(٣) ينظر: أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٤٣.

(٤)عابد خزندار، الابداع: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،(د. ط)، ١٩٨٨، ص ٢١.

(٥) الديوان، ص ٢٠

ويمكن القول إن الشاعر نجح أيّما نجاح في إبراز الدلالة النفسية التي تؤديها الصورة الشعرية التي خلقها وفاقاً لما يشعر، وخصوصاً عندما استعان في توجيه تلك الدلالة بالصور التشبيهية والاستعارية والرمزية وغير ذلك، وكأنه يسعى لخلق تواصل نفسي مع المتلقي، ويطرح بُعداً وقاسماً مشتركاً بين الصورة في عملية الخلق الشعري والدلالة التي تؤديها، كي يتمكن من التعامل والتعبير عن مدلولاته النفسية بشكل دقيق وواضح .

وبقدر ما تنطوي نصوص الشاعر على حاجة ذاتية لحبيبة منتظرة، فإنها تجسد واقعاً نفسياً قوامه الأوجاع الذاتية والحزن الدائم، فهو يتحدث عن أميرة لأوجاعه لكنها مشتهاة !! فيالها من أوجاع تُشتهى وحزن يُشترى، فالحبيبة وأن حاول الشاعر اخفاء هويتها والتصريح باسمها فهي مثيرة لحزنه وولعه وشوقه وخوفه الدائم من فقدان ما يتمنى، فالصورة بإيحاءاتها النفسية تطرح معاناة قائلها ومشاعره التي أطلق العنان لآهاتها في هذا النص الشعري المليء بالخوف من ضياع ما يعنيه ويكابده ، في تشبيه بلاغي قيمته تقوية المعنى وتوضيحه وتجسيده في صورة ملموسة، فيقول: (١) .

فإنّي أردتك أن تُطلقيها بصوتك ...أميرةَ أوجاعيَ المشتهاة

ويا حزنَ أسفاريَ المشتراة ... أخاف يغيب مساءٌ

ويأتي مساءٌ ... ويفرحُ من دونيَ العاشقون

ووحدي هنالكَ أشقى بحبّك

وتكشف نصوص الشاعر العراقي نزار النداوي عمق انفعاله وتحديه لواقعه الانساني ومسؤولية مواجهته لذلك الواقع المثقل بالآلام والآثار المتمخضة، خصوصاً عندما يتحدث عن حاجته للحبيبة، فلم يكتف بإبراز لوعته وشوقه لها؛ بل يرسم نفسية مشهدا رومانسيا محضاً وكأنه يعبر علنا عن حاجة نفسية له، فهو ينزل في مقابلة بلاغية رائعة تقبيل شفتي الحبيبة قبالة الصلاة الواجبة ، ويجعل من نهدها محراباً لصلاته التي يريدها أن تكون كاملة وتامة دونما اجتزاء، فيقول: (٢).

تعالي فما ملّت الشفتانِ الصلاةَ ... وما تعبَ النَّهدُ من صخَبِ الذِّكرِ فوقَ الشّفاهِ

تريد الصلاةَ مسافرةً فوقَ نهدِكِ تمّاً ... وإلا الصلاةَ

فإنّ الصلاة لنهدٍ ... تنزّلُ ليلاً تمامْ

ولا تختلف تفاصيل الصورة الشعرية في دلالاتها التي رسمها الشاعر ولهفته إلى الحبيبة الا بقدر دفاعه عن الحب ومتبنياته وطهارته، فالشاعر وحتى وهو يعيد يتبنى موقفا ضد ما يسميهم" أبناء

(١) الديوان، ص ٤٤

(٢) الديوان، ص ٤٨

التيه" في استعارة لقصة جيل التيه وأصحاب النبي موسى "ع" يؤكد بأنَّ الحب ملاذ آمن لمن التجأ إليه.

ويبدو اضطراب الشاعر واضحاً وهو يدعو إلى الالتصاق بذلك الملاذ الذي تشكل الحبيبة هيئته وقواه وعموده الفقري، فلولاه لتفكّكت المجتمعات وخلت من الأخلاق والقيم، واقتربت من ممارسات الحانة، وهجاء فتيات الليل لبعضهن البعض، وفي هذا الإطار يقول:(١)

ويا أبناءَ التّيهِ المغلوبينَ ... الحبُّ ملاذٌ آخرُ

فانتسبوه ... الحب ملاذٌ آخرُ

فابتدروه ... وإلا صرنا في قاموسِ الحانةِ قحباءً

تهجو قحباءْ

ويستمر الشاعر في دفاعه عن متبنياته العاطفية التي تشكل الحبيبة قطب رحاها، ليؤكد في النهاية أن نساء حيِّهم يتفن بصفات تميزهن عن غيرهن، فهن يخجلن حتى من بوح المرايا ؛ وكأنه يحرص على لجم من يحاول تجريد الإنسان العربي من أرثه الثقافي والحضاري والقيمي ، بما يمتلكه من وعي فطري متأصل حرص على إثبات وجهة نظر مغايرة تماماً لما يطرح ، فيقول(٢):

الأمهاتُ بحيّنا ... يخْجَلنَ مِنْ بوحِ المرَايا

أنْ يفيضَ العطرُ منها ... كنّ يخشَينَ انفضَاحَ المسْكِ

يغمِرُ قلبهنّ ... يقالُ حلّفْنَ النّوافذَ

وتضعنا القراءة الفاحصة لنصوص النداوي في هذه المجموعة الشعرية في صميم ما يتطلع له وما يتبنى، فقد لعبت فيما يبدو الظروف التي عاينها في ديار الغربة في تحديد بوصلة حركته شعرياً، وحتى عندما يصف عشيقته فكأنه يريد الهروب من واقعه الذي عاشه، فهو يتطلع لمعشوقة يستفيق من عطرها نهر الهوى، وعندما أراد التعبير عن المشاعر النفسية الجياشة التي يختزلها قلبه تجاهها، وظف ما يفيض به قلبه وأحاسيسه المتداخلة تجاه الحبيبة، لتتظافر كل تلك الأشياء في خلق جو نفسي لاستثارة الوجدان الذي يزيل عن الصورة حسيتها وجمودها في استعارة بلاغية تأخذ دلالتها من "السياق المشحون بشعور الشاعر وعواطفه" (٣)، ومن ذلك قوله(٤) .

---

(١) نفسه، ٨٤

(٢) الديوان، ص ٧١

(٣) عبدالكريم أسعد قحطان ، الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، دار الثقافة، الشارقة، الإمارات، ٢٠٠٢، ص ٥١.

(٤) الديوان، ص ٨٥

لعطركِ نهرُ الهوى يستفيقُ ... فيربكُ منّي هناكَ المسارا
ويفضح فيَّ اختلالَ السّكون ... غناءٌ على شفتيّ تجارى
لعينيكِ ... يا لغةً مَنحَتها المجامرُ
من وجعِ النّار ناراً ... وخلف ارتعاشاتِها
صرتُ وجهاً ... تسكّعَ فوق دروبِ السّكارى

ومع بساطة اللغة الشعرية المستخدمة وعدم تكلفها فأن عواطف الشاعر تجاه الحبيبة التي قد تكون رمزاً للوطن المستباح جعلت التعبير بهذا الوضوح أكثر جمالاً وقدرة على تأدية الغرض المطلوب، وتلك سجية تحسب له ولعملية الخلق الشعري ، فعن أي صورة نفسية يصف الشاغر لغة الحبيبة وهي تستمد دفء الفاظها من المجامر. ومن الطبيعي أن لا يكتب النجاح لمثل هذه المحاولات المتفردة في الشعرية العربية لولا وجود ترابط وتوافق بين خلق الصورة وتأجج العاطفة في نفس الشاعر، فاذا كان" الشع يعني الانحراف عن استعمال اللغة العادية، فالقصيدة هي تعبير غير العادي عن عالم عادي" [١].

الخاتمة:

بعد هذه الجولة النقدية مع الإبداع الشعري يمكننا القول: إن الحنين بمظاهره المختلفة فنّ له ارتباط وثيق بالحياة، وهو يُعنى بتصوير أفراحها وأتراحها، وهو مجال ملائم لتوثيق مرحلة من الأحداث السياسية والاجتماعية التي تؤثّر في ثقافات الشعراء وعواطفهم ، ويمكن تلخيص ما توصلت إليه على النحو الآتي : ١- لا يمكن اقتصار مظاهر الحنين في نتاج الشعراء على عصر دون آخر، فأينما وجدت أسباب الغربة والإبعاد القسريين، صار الحنين إلى الوطن والأحبة مشروعاً وحاضراً في يوميات الشعراء ونتاجهم الصادر عن عاطفة صادقة وإحساس مرهف. ٢- تعدُّ تجربة الإبعاد عن الوطن من أعمق التجارب الذاتية التي خاضها الشعراء، وتتّصف بالتعبير عن الأهواء النفسية ، وتجسيد الذات، ولها مالها من الدلالات النفسية التي حرص الشاعر على إظهار اشتياقه ولوعته لرؤية بلاده.

٣- لا تختلف مثيرات الحنين إلى الديار والأحبة عند شعراء العصر الحديث عن سابقاتها من العصور، ولم يأتِ هذا التشابه من باب التقليد المطلق بل المثيرات هي ذاتها التي أثرت في الشعراء وحكت مشاعرهم تجاهها قديماً وحاضراً.

٤- اتضح أن ثمة صلة بين نتاج الشاعر النداوي وبين حياته الشخصية والأحوال التي عاشها خارج البلاد، إذ لا يمكن الفصل بينهما ودراسة إحداهما دون الأخرى.

---

(١) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي، ط1 ، الدار البيضاء، 1986 م.

٥- ظلَّ الشاعر متواصلاً وحريصاً على رفد المكتبة الشعرية العراقية بنتاج شعري يتّصف بالشوق الصادق والعاطفة المؤثرة في نفوس متلقيه ، على الرغم من الحياة الصعبة التي عاشها في بلاد الغربة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١. أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.
٢. الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
٣. نزار النداوي ، ممالك مسروقة الوقت، دار الرافدين، بيروت، ط٢، ٢٠١٩.
٤. أرسطو. فن الشعر، ترجمة وشرح وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٧٣.
٥. حسام التميمي، تجربة الاغتراب عند فدوى طوقان، بحث، مجلة جامعة بيت لحم، العدد ١٨، ١٩٩٩.
٦. حسن غانم الجنابي، سيمياء المكان في شعر محمود درويش ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ٢٠١٦.
٧. شكسبير والإنسان المتوحد، جانيت ديلون، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، دار المأمون للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٨٦.
٨. صلاح فضل ، النظرية البنائية في النقد الأدبي ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧ .
٩. عبد الرحمن عرفان، الشعر الحديث في اليمن- ظواهره الفنية وخصائصه المعنوية، ، جامعة بغداد ١٩٩٦.
١٠. عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، دمشق، ط ١ ، ١٩٩٢.
١١. عبدالكريم أسعد قحطان ، الصورة في شعر لطفي جعفر أمان، دار الثقافة، الشارقة، الامارات، ٢٠٠٢.
١٢. عبدالله مهتدي، شعرية المكان في ديوان" حين استدرجتني المدن" للشاعر محمد منير، مقالة ، صحيفة الحوار المتمدن، رقم العدد ٥١٥٨، ٢٠١٦.
١٣. علي عبد الأمير، الشعر العراقي في المنفى ووعي المنفي – جيل الثمانينات أنموذجا، الموقع الرسمي للشاعر،٢٠٠٩.
١٤. فاطمة حميد السويدي، الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ .
١٥. فتح الله خليف، ندوة حول مشكلة الاغتراب، بحث، مجلة عالم الفكر، مج١٠ ، ١٩٧٩.
١٦. ماهر حسين فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠
١٧. محمد راضي جعفر ، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩.
١٨. مشري بن خليفة، النقد المعاصر والقصيدة الحديثة ، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٣.
١٩. نسرين محمود الشرادقة ، الاغتراب في شعر أمجد ناصر، عالم الكتب الحديثة ، أربد ، الأردن، ٢٠١٣، ط١.
٢٠. ياسر عبد الحسيب رضوان، عناصر الحنين إلى الوطن، دراسة مقارنة بين شوقي والمعري، ٢٠٠٦، مكتبة الألوكة الالكترونية.

Sources and References

The Holy Quran:

1. Abu Al-Faraj Qudamah Bin Jaafar, Criticism of Poetry, verified by: Muhammad Abd Al-Moneim Khafaji, Dar Al-Kotob Al-Ulmiah, Beirut, 2nd Edition, 1978
2. Al-Jahidh, Nostalgia for the Homelands, verified by: Muhammad Basil, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, 1st Edition, 2001.

3. Nizar Al-Nadawi, Kingdoms of Stolen Time, Dar Al-Rafidain, Beirut, 2nd Edition, 2019.
4. Aristotle. The Art of Poetry, Translation, Explanation and verification : Abd Al-Rahman Badawi, Dar al-Thaqafa, Beirut, 3rd Edition, 1973.
5. Hussam Al-Tamimi, The Experience of Expatriation by Fadwa Toukan, Research, Bethlehem University Journal, Issue 18, 1999.
6. Hassan Ghanem Al-Janabi, The Symbolism of Place in the Poetry of Mahmoud Darwish, House of Cultural Affairs, Baghdad, 2016.
7. Shakespeare and the Autistic Man, Janet Dillon, translated by: Jabra Ibrahim Jabra, Al-Mamoun House for Publishing and Distribution, Baghdad, 1986.
8. Salah Fadhil, The Constructivist Theory in Literary Criticism, Baghdad, House of General Cultural Affairs, 1987.
9. Abdul-Rahman Irfan, Modern Poetry in Yemen - Its Artistic Phenomena and its Intangible Characteristics, University of Baghdad, 1996.
10. Abdel-Qader Fedouh, The Psychological Trend in Criticism of Arabic Poetry, Damascus, Edition 1, 1992.
11. Abdul Karim Asaad Qahtan, the Picture in the Poetry of Lotfi Jaafar Aman, House of Culture, Sharjah, Emirates, 2002.
12. Abdullah Muhtadi, Poetry of Place in a Divan “When the Cities Lured Me Back” by the poet Muhammed Munir, article, Al-Hiwar Al-Muhtamdan Newspaper, Issue No. 5158, 2016.
13. Ali Abd Al-Amir, Iraqi Poetry in Exile and the Consciousness of Exile - The Generation of the Eighties as an Example, The Poet’s Official Website, 2009.
14. Fatima Hamid Al-Suwaidi, Alienation in Umayyad Poetry, Madbouly Library, Cairo, 1st Edition, 1997.
15. Fathallah Khalif, a Symposium on the Problem of Alienation, Research, Alam Al-Fikr magazine, Volume 10, 1979.
16. Maher Hussein Fahmy, Nostalgia and Alienation in Modern Arabic Poetry, Institute for Arab Research and Studies, Cairo, 1970
17. Muhammad Radi Jaafar, Alienation in Contemporary Iraqi Poetry, Arab Writers Union, Damascus, 1999.
18. Mishri bin Khalifa, Contemporary Criticism and the Modern Poem, Dar Al-Hamid for Publishing and Distribution, Amman, Jordan, 1st Edition, 2013.
19. Nasreen Mahmoud Al-Sharradqa, Alienation in Amjad Nasser’s Poetry, The World of Modern Books, Irbid, Jordan, 2013, i 1.
20. Yasser Abdul-Hasib Radwan, The Elements of Nostalgia for the Homeland, a Comparative Study between Shawqi and Al-Maari, 2006, Al-Aluka Electronic Library.